
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

أضواء على العلاقات المغربية الاسبانية خلال القرن 16م
" من خلال مراسلات باللغة الإسبانية "

مارية دادي[1]

تقديم :

لا أحد ينكر أهمية الوثيقة في الدراسات التاريخية وخاصة منها المتعلقة بالعلاقة مع الآخر. ولدراسة موضوع العلاقات بين المغرب وإسبانيا، حاولنا أن نستشف نوعية هذه العلاقة من خلال بعض المراسلات التي صدرت عن شخصيات هامة تركت بصماتها واضحة في العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن 16م، ويبلغ عددهذه المراسلات ثلاثة عشر رسالة كتبت باللغة الإسبانية، وقد انتقيناها من سلسلة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب (les Sources Inédites de L'Histoire du Maroc) السلسلة الأولى، السلالة السعدية، المجلد الأول والثالث من المجموعة الإسبانية، خلال الفترة الواقعة ما بين سنتي 1545- 1578، وذلك نظرا لما تتضمنه من الإشارات الهامّة التي ستمكن المطلع عليها من استقراء طبيعة العلاقات المغربية الإسبانية التي كانت سائدة خلال عهد الدولة السعدية ، والمواضيع التي كانت تستأثر باهتمام الدولتين.

اخترنا في تناول هذا الموضوع أن نقدم نصوص هذه الرسائل مترجمة إلى اللغة العربية، وأن نترك التعليق عليها، واستخلاص ما تتضمنه من إشارات وفوائد تاريخية، ودراسة مميزات العلاقات المغربية الإسبانية بعد ذلك.

وقبل ذلك، أغتنم الفرصة لأنوه بالمساعدات القيمة التي قدمها لي الزميل الأستاذ مولاي أحمد الكامون، من شعبة اللغة الإسبانية وآدابها بكلية آداب وجدة ، من أجل ترجمة هذه المجموعة من المراسلات، مما يترجم بوضوح فائدة التعاون وتضافر الجهود بين مختلف التخصصات لخدمة البحث العلمي والنهوض به.

1- أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – وجدة.

I– نصوص المراسلات المترجمة

الرسالة الأولى:[1] رسالة من الدوق دي ميدينا سيدونيا[2] Duc de Medina sédonia إلى دون فليب الثاني

إلى صاحب الجلالة ، سيدنا العظيم

عاد الآن حامل هذه الرسالة، خوان دي هريرا[3] Juan de Herrera من رحلته إلى إفريقيا لافتداء الأسرى، كما سيطلعكما على ذلك.

وأخبرني بأن الشريف[4] أصبح قويا جدا، وأنه قريب جدا من فاس. وعلى ما يبدو من عدد حاشيته وما يعرف من شجاعته، فإنه سيتمكن بدون شك من أخذها، وهو ما سيلحق ضررا كبيرا بالمسيحية وسيجعل منطقة الأندلس أمام جار لا يؤتمن. لأنه يتوفر في مجلسه الملكي على أشخاص يتمتعون بعلم غزير وخبرة بالمسائل المتعلقة بالحرب.

ويبدو لي أنه في مصلحة صاحب الجلالة وسموكم أن أحيطكم علما لكي تبعثوا للتشاور، إذا كان من الأحسن إغاثة ملك فاس[5] مثلما حدث في مملكة غرناطة، وسيكون ذلك فرصة نستفيد منها كما هو الشأن بالنسبة للملوك الكاثوليك الذين أخذوها، والذين تغمدهم الله برحمته. ولأن الشريف إذا تمكن من تلك الأرض وصار سيدها، سيصبح من العسير طرده منها، ويمكن أن يلحق أضرارا جسيمة بها.

من سان لوكار دي بارّاميدا San lucar de Barramida

في 29 أبريل 1548 . إمضاء الدوق

---

[1] - Henri de Castries," Les sources inédites de L'histoire de Maroc" I[er] série Dynastie Saadienne, Espagne, T.I, Paris, 1921, P. 128.

[2] - فرانسيسكو دي مدينا كان قائدا لمليلية، انظر: H. de Castries, op.cit. P. 195, (N° 1)

[3] - جوان دي هريرا Juan de Herrera موثق سبتة، كان يقوم بسفريات عديدة إلى تطوان سواء من أجل التفاوض لافتداء الأسرى، أو للحصول على المعلومات، وكان يسمى (بالخادم العظيم) أنظر:

H. de Castries, les sources inédites de l'histoire du Maroc, 1[er] série, Dynastie Saadienne, Espagne, T. 1, Paris, 1921, P. 96, (N° 3).

[4] - يقصد به الأمير السعدي محمد الشيخ (1544- 1557) المؤسس الحقيقي للدولة السعدية وأب الأمراء الثلاثة العظام في تاريخها: عبد الله الغالب وعبد الملك وأحمد المنصور.

[5] - يقصد به أحمد الوطاسي آخر سلاطين بني وطاس (1524- 1548).

الرسالة الثانية[1]:

من ملك بادس إلى السيد العظيم الدوق دي ميدينا سيدونيا في سان لوكار

بعد وصولي إلى مدينة مليلية، أحيطكم علما بوصولي وكيف تمّ استقبالي من طرف هؤلاء القادة بالترحاب الكبير، وأنا بنفسي أقبل يدي عظمتكم للمعروف الذي أسديتموه لي، والذي حظيت به من طرف عمالكم. وإنني قلق جدا من طول المدة التي مكثتها في مليلية، لأن سيادتكم أمرتم بحجزي هنا بدلا من تلبية حاجياتي. إن ما أتأسف له أكثر هو فقداني لمملكتي. وأتوسل إليكم إرسال كتاب عاجل إلى العاصمة حتى لا أظل محجوزا هنا، وأتمكن من الذهاب إلى إسبانيا للالتقاء مع أصحاب السمو، بدلا من البقاء هنا في مليلية في تضييع الوقت بدون طائل.

لذا التمس من سيادتكم إسداء معروف لي في هذه القضية، والذهاب إلى العاصمة سريعا ، لأنني التجأت إلى حصنكم هذا كصديق آملا في مساعدتكم لي.

الله يحمي سموكم وعائلتكم، ووفقكم لخدمة دولتكم، فهذا ما أتمناه.

من مليلية في 19 ماي 1549.

الإمضاء: أبو حسون أصلح الله حاله.

الرسالة الثالثة[2] :

من ميكَيل دي بيريا[3] Miguel de Peria إلى ماكسمليان[4] وإلى الدونا مارية "النمساوية"[5]

مليلية في 1550 من القبطان بيريا

ساداتي العظماء

منذ مدة طويلة لم نسمع أخبارا جديدة عن الشريف ولا عن جيشه باستثناء ما أخبرت به سموكم بخصوص موت الحران[6] ابنه الأكبر، وبالجيش الذي لازال في

---

[1] - Henri de Castries, Op Cit, P. 284-285.

[2] -Henri de Castries, Op Cit, P. 515.

[3] - مايكل دي بريا Miguel de Peria ، قائد مليلية عام 1550، انظر: الرسالة نفسها.

[4] - ماكسمليان من ملوك بوهيمية، حكم إسبانيا في نهاية 1548 إلى غاية عودة الأمير فليب الثاني من ألمانيا في 12 يونيو 1551، انظر : H. de Castries, op.cit.P. 129, (N° 2)

[5] - مارية النمسا Marie d'Autriche ابنة شارل الخامس وزوجة ماكسيمليان.

[6] - الحران محمد الإبن الأكبر لمحمد الشيخ السعدي.

تلمسان. وعلى الرغم من قدوم بعض المغاربة من دبدو Dugudo، ومن بعض الجهات المجاورة لفاس، لرؤية هذا الملك[1]، وكذلك مولاي بو حسون بشغف كبير.

ومن الآن فصاعدا ستكون هذه المدينة في حاجة ضرورية إلى المؤن، وسموكم قد أنعم علينا عندما أمرنا بإغاثة هذا الملك والمغاربة والعمال المنهوكين. وسأبعث إليكم مقدار المؤونة والحساب وكيفية توزيعها.

ومن الآن فصاعدا أيضا سأعتمد على قمح الدوق لتزويد الملك والمغاربة التابعين له ولعماله، حتى ينعم علينا سموكم ويبعث لنا بالمزيد.

من مليلية، في دجنبر عام 1550

إمضاء: مايكل دي بيريا

الرسالة الرابعة[2] :

مليلية في 1551

من ألونصو دي مالقا Alonso de Malaga إلى ملك بادس

إلى السيد العظيم والقدير السيد ملك بادس

منذ عدة أيام ونحن نتمنى رؤية سموكم في هذه البلاد، لأن هناك حاليا فرص كثيرة للوصول إلى ما كنتم تهدفون إليه، وهو الإطاحة بالشريف.

ومجيء سموكم الآن وإن لم يكن سوى برفقة ستة آلاف رجل، فسيمكنكم من تحقيق رغبتكم هذه بسهولة كبيرة. وأخبرونا هنا بأن سموكم جاهز للمجيء، وهذا ما نتمناه دائما.

وأظن أن جلالتكم سيقوم بذلك، ويجب ألا تكون لكم سوى هذه الغاية. والظروف الحالية مناسبة أكثر من أي وقت مضى للتعجيل بالمجيء حتى وإن كنتم بمفردكم، ومغاربة هذه الإمارة لا يتمنون ولا ينتظرون شيئا آخر سوى ذلك. كما سيخبركم بهذا صاحب السمو مولاي يحيى ابن عمكم الذي طلب المجيء لمرافقتكم.

كل أتباع سموكم في مليلية هم بخير ويقبلون يديكم. الله يحمي السيد العظيم والقدير ويوفقكم للتغلب على أعدائكم المغاربة.

إمضاء: ألونصو دي مالقة. A.M

[1] - يقصد به مولاي عمر وهو من بقايا المرينيين الذين حاولوا إقامة مملكة خاصة بهم في دبدو.وعندما تمكن هذا الأمير من الحصول على الحكم لم ينعم به طويلا إذ تمكن محمد الشيخ من طرده .

[2] - Henri de Castries, Op Cit, P. 579.

الرسالة الخامسة[1] :

من ألونصو دي مالقا إلى مولاي أحمد[2]

إلى السيد العظيم مولاي أحمد، نجل السيد ملك بادس في بلد الوليد.

متعكم الله بالعافية والازدهار، وعجّل بمجيئكم إلى هذه المناطق رفقة أبيكم، وجنود جلالته للإطاحة نهائيا بالشريف المستبد.[3]

ويشكل الوقت الحاضر فرصة سانحة له، لأن حكم الشريف بدأ ينهار. وألتمس من سموكم أن تسدوا لي معروفا، وذلك بإخباري عن كل ما تعرفونه حول مجيء السيد الملك وشؤونه، لأنني أرغب في ذلك، ولأن عمكم سمو مولاي يحيى سيطلعكم على كل ما حدث هنا. في هذه الحالة لا أذكر شيئا، سوى أن أرجو الله أن يحمي سموكم ويوفقكم كما أتمنى.

من مليلية 4 ماي 1551.   أقبل يدي سموكم.

إمضاء ألونصو دي مالقا   الصراف.

الرسالة السادسة[4] :

ألونصو دي مالقا إلى فليب الثاني Don PhilippeII

من صراف مرتبات الأشغال في مليلية

إلى صاحب العظمة والمهابة

إن ما أخبر به جلالتكم حاليا، هو أن العناية بالأشغال الخاصة بتحصين هذه المدينة، ترجع بالأساس إلى الحرص على مصلحة سموكم.

منذ أن علمت بأن ملك دبدو قد تمكن من الإفلات من يد الشريف وفراره إلى الصحراء، لم أتوصل بأي خبر يتعلق به، ولا بمحمد الشيخ ، باستثناء أن هذا الأخير موجود في فاس. وعندما سأحصل على بعض المستجدات التي تتعلق به، سأحيطكم علما بها كما أردتم.

إن مغاربة هذه البلاد يتمنون كثيرا مجيء ملك بادس لأنهم على علاقة سيئة بمحمد الشيخ وإن كانوا من أتباعه، لأنه ليس لهم خيار حسب ما صرح به بعض منهم، لأنه لا يحسن معاملتهم، وهذا ما قاله لي مغربي من حاملي السلاح قدم في 29 من دجنبر برفقة قائد الشريف إلى هذه البلاد، للاتفاق على فدية أسرى المغاربة هنا.

---

[1] - Henri de Castries, Op Cit, P. 580.

[2] - مولاي أحمد هو ابن أبي حسون الوطاسي ملك بادس.

[3] - الشريف يقصد به محمد الشيخ.

[4] - Henri de Castries, Op Cit, P. 621.

من مليلية 24 يناير من عام 1552   إمضاء ألونصو دي مالقا

الرسالة السابعة [1]:

من فرانسيسكو دي مدينا[2] Fransisco de Medina إلى الدون فليب الثاني
من قائد مليلية، 27 يناير، 1552
إلى صاحب السمو السيد العظيم

وصلت إلى هنا سفينة كبيرة في التاسع من شهر يناير، أرسلها مموّنوا مالقة محملة بالملح والمؤن الأخرى.

إن المغاربة يهدّدونني دائما، كما أن الشريف أصبح يتوفر هنا على حوالي مائة رمح مجهزة، بالإضافة إلى توفره على كمية كبيرة منها موجودة في البلاد.

ولا نتوفر حاليا على أخبار تتعلق بالشريف، ولا بملك دبدو تستحق الذكر، سوى أن هذا الأخير يوجد في الصحراء هاربا من الشريف.

ومرت من هنا في الخامس والعشرين من هذا الشهر ثلاثة سفن تركية كبيرة عائدة من باديس.

وقد أنعمتم علي في الأيام الماضية، عندما أخبرتمونني بأنكم أخبرتم مموني مالقة، ليدفعوا إلي النقود التي صرفتها على أبناء ملك بادس، والتي لم يقوموا بتسديدها إلي، ولذلك ألتمس من سموكم مساعدتي بإصدار قرار للحصول على هذه النقود، لأنها ليست ملكي، واطلبها لمن يستحقها، وفي هذه الحالة ستسدون إلي معروفا كبيرا.

من مليلية ، في 27 يناير 1552.

إمضاء: فرانسيسكو دي مدينا

الرسالة الثامنة[3] :

من فرانسيسكو دي مدينا إلى فليب الثاني
قبطان مليلية، في 4 فبراير 1552.

إلى صاحب السمو السيد العظيم والقدير

---

[1] - Henri de Castries, Op Cit, P. 622.

[2] - فرانسيسكو دي مدينا كان قائدا لمليلية، انظر: H. de Castries, op.cit. P. 195, (N° 1)

[3] - Henri de Castries, Op Cit, P. 624.

بعدما كتبت لسموكم وصل إلى هنا جاسوس، وأخبرني بأن الشريف قد حشد جيشا للهجوم على هذه المنطقة، وهو ما يتطابق مع ما قاله لي جاسوس آخر، أتى في التاسع والعشرين من يناير.

وأتوسل إلى سموكم أن تقوموا بتزويدي بـ 300 رجل ومدفعين وقذيفتين، لأنه يتناسب ومصالح سموكم، وليبعث لإمدادي بذلك.

وأخبرني هذا الجاسوس أيضا بأن ملك دبدو[1] يودّ المجيء إلى هنا، وبأنه في كل الأحوال سيأتي. أتوسل إلى سموكم لكي يأذن لي لأقوم باستقباله، لأنه إذا أتى قبل أمر سموكم، لن يخدم ذلك مصلحتكم، وبهذا سينعم علي سموكم بنعمة كبيرة عندما تبعثونني لأتصرف وفقا لأوامركم.

الله يحمي سيدنا العظيم القدير ويساعدكم في توسيع رقعة ممالككم كما يتمنى خدامكم.

من قائد مليلية، 4 يناير 1552.

أقبل يدكم المحترمة.

الإمضاء: فرانسيسكو دي مدينا

الرسالة التاسعة[2] :

من فليب الثاني

إلى الدون جوان دي سيلفا[3] Don Juan de silva،

لقد أخبرني قائدي العام في وهران، الماركيز الدون مارتان القرطبي Don Martin de cordova، بأن الشريف[4] أفهمه بأنه يرغب في عقد اتفاقية معي حول الهدنة والتحالف إذا رغبت في ذلك، ويتبين لي أنه من المناسب رفض اقتراحه.

وبعثت للماركيز المذكور قصد الاستمرار في المباحثات مع ترجيحها قدر الإمكان لصالحي، آخذا بعين الاعتبار كل ما يمكن أن يمس سمو الملك[1] ابن أختي. هذا

---

[1] - يقصد به مولاي عمر

[2] - Chantal de la Vérone , les sources inédites de l'histoire du Maroc, 1er série, Dynastie Saàdienne, Espagne, T. 3, Paris, 1961, P.213-214, (N° 3).

[3] - الدون جوان دي سيلفا سفير إسبانيا في البرتغال، وقد صاحب الدون سباستيان في حملته سنة 1578، وقد تعرض للأسر في معركة وادي المخازن، وأطلق سراحه بطلب من فليب الثاني، وكان شاهد عيان أثناء استخراج جثة الدون سباستيان. أنظر: Chantal de la veronne, op,cit,p.199,(N.I).

[4] - الشريف: يقصد به عبد الملك المعتصم (1576-1578)، انظر: إبراهيم شحاتة، معركة وادي المخازن، ص. 305.

وقد أرسلت لكم هذا المبعوث قصد تبليغكم بما كنت أرغب فيه بخصوص هذه القضية، نظرا لما أكنه له من أهمية واحترام. وكذلك لمعرفة ما إذا كان يود الدخول في المباحثات مع الشريف المذكور، ويخبرني حسب رغبته، والخصوصيات التي من شأنها أن تمنح له ليسعى إلى تحقيق الرضا والفائدة للطرفين، وهو نفس ما قيل لسفيره[2]. وأخبروني عن كل أحواله، وكذلك عن سيدتي الملكة[3]، وبكل ما جرى أيضا. وسأرتاح إذا علمت ذلك بالخصوص.

من مدريد، 8 فبراير، 1576.

أنا الملك

الرسالة العاشرة[4] :

من فليب الثاني إلى مولاي عبد الملك

مذكرة البلاغ إلى القائد كابريتا Cabrita

إلى مولاي عبد الملك الشريف والمحمود بين المغاربة، ملك فاس ومراكش، أتمنى لكم مزيدا من الصحة وأطيب الأمنيات.

بالنسبة لرسائلكم المؤرخة في 10 من يناير و 5 من فبراير الماضيين، والمذكرة الموقعة باسمكم التي حملها القبطان كابريتا، وما رواه عن كلامكم بمقتضى إيمانكم، تفهمنا الإرادة الحسنة في إثبات أسس السلام والصداقة معنا، وقد أسعدنا هذا كثيرا ، وقد كلفنا القائد السالف الذكر بذلك. لهذا يجب أن يحظى بثقتكم في كل ما يحمله إليكم من جانبنا .

واسعوا إلى دعم أسس السلام والصداقة السالفي الذكر، مؤكدين لكم أننا سنرتاح لذلك، وسنوصي بالحرص عليها على مرّ الزمان لإثباتها، وسنقوم بمثل ما فعلتم .

فلتكن معزّزا مكرّما بين المغاربة، دمتم في حفظ الله.

في 11 ماي، عام 1577.

---

[1] - سمو الملك: يقصد به الدون سباستيان هو ابن الملك جوان الثالث تولى عرش لشبونة سنة 1562، وهو أحد الملوك الثلاثة الذين قتلوا في معركة وادي المخازن، انظر: عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، تحقيق عبد الكريم كريم، ص:26.

[2] - D. Duarte de castelo Branco

[3] - يقصد بها - الملكة- الأم كاترين أخت شارلكان وأرملة جان الثالث ملك البرتغال المتوفى سنة 1557.

[4] - Chantal de la Vérone , Op Cit, P.296-297, (N° 3).

الرسالة الحادية عشر[1] :

من فاسباسيانو كونزاكا ݣلونا[2] vespasiano gonzaga collona إلى فليب الثاني
إلى فخامة صاحب الجلالة سيدنا ، بين يدكم.

قال لي هذا اليوم التاجر الكورسي أندري ݣاسبارو[3]، الذي سبق لجلالتكم أن علم منه أخبارا، بأنه توصل اليوم ومن جديد بطلب من ملك المغرب، مولاي عبد الملك، يتضمن أمورا أدرجتها هنا بالترتيب لتطلعوا عليها، والتي ستفتح لكم المجال لإقرارها عاجلا كما هو الشأن بالنسبة لهديته ، والتي يرغب كثيرا في التوصل بها، إلا أن أندري كاسبارو رفض حملها سواء عن طريق مرسيليا، أو عن طريق جهات أخرى من فرنسا، حتى يأذن له جلالتكم.

ويبدو لي بأن هذه القضية باستطاعتكم حلها بطريقة أو بأخرى تبعا لمصلحتكم، حتى يعلم هذا الرجل ما سيقوم به وما سيجيب به ملك المغرب، مولاي عبد الملك.

الله يحمي فخامة صاحب الجلالة مع اتساع رقعة إمارته.

من إمارة بلنسيا، أواخر ماي 1577.

الإمضاء: فاسباسيانو كونزاكا ݣلونا

الرسالة الثانية عشر[4] :

من مولاي محمد بن عبد الله إلى فليب الثاني وإلى خوان دي مولينا

الرسائل المترجمة التي كتبها لصاحب الجلالة ولحاكم البنيون، ترجمت من العربية إلى الإسبانية.

نسخة من الرسالة المترجمة التي كتبها الشريف[5] باللغة العربية إلى صاحب الجلالة.

من العبد لله الذي لا يساعده أحد سواكم، أمير المؤمنين محمد الشريف الحسني نصره الله، إلى العظيم والقدير الملك الباسل فليب الثاني، نجل ملوك إسبانيا العظماء،

---

[1] - Chantal de la Vérone , Op Cit, P.318-319, (N° 3).

[2] - هو أمير سابيونتا Sabionta، وكان نائبا لملك النفار (1572) انظر:
Chantal de la veronne, op, cit, p:203, (N°5)

[3] - أندري كاسبارو الكورسي من تجار بلنسية ، قام بدور هامّ في العلاقات الدولية الإسبانية خاصة مع المغرب في عهد عبد الملك السعدي. انظر : إبراهيم شحاتة ، ص. 179.

[4] - Chantal de la Vérone , Op Cit, P.349-350-351, (N° 3).

[5] - الشريف، يقصد به محمد المتوكل الملقب بالملك المسلوخ، توفي أثناء معركة وادي المخازن.

الله ينصره، وهذه الرسالة كتبت لجلالتكم في أتم الصحة والهناء، يوم السبت السادس عشر من نونبر من هذا العام في مدينة بادس.

كل ما قدره الله فإنه خير، لأنه مكتوب على جبين كل واحد، حيث تتغير الأمم وتحدث نزاعات بين الملوك، والعلاقات التي تربطهم فيما بعد بإذن الله، نلاحظ أن ملكا يحرم من الحكم مستقبلا بسبب هيمنة سلطان آخر.

والتاريخ دائما يسجل الخير والشر الذي يرتكبه الملوك انطلاقا من السالفين إلى يومنا هذا. وفي هذا الجانب سمعة جلالتكم شائعة انطلاقا من الملك ألفونسو حتى الآن . إذن عندما اضطر لحاجة أتوجه بعون الله إلى جلالتكم لقضائها، وبهذا تسمو سمعتكم ويكون لها صيت لدى كل ملوك العالم، أطلب منكم تدعيمي لاسترجاع ملكي، وأنا على يقين بأنكم ستلبون طلبي هذا، وبهذا سوف تكرمونني كما فعل الملوك السالفين لكم.

إن ما حدث كان مقدرا من عند الله، فلا مفر منه لأحد، وإن أعداءنا ليسوا في المستوى، ولا يملكون ما تملكونه من القوة التي أتمنى أن تظهروها في هذا الصدد لصالحي، وبذلك ستدركون بأنه من السهل علينا التغلب على العدو، وهذا يجب أن يحدث في أقرب الآجال، لأن عدونا ليس محبوبا عند أتباعه، وهكذا سيكون من السهل جدا أن تنضم إلينا مجموعة من المناطق لصالحنا، وإذا تأخر هذا، ستنحاز هذه الممالك حتما إلى أعدائنا، وبعدئذ لا نستطيع فعل شيء، وفي أقرب وقت سأبعث ابني ليمثل أمام جلالتكم ليتباحث معكم في هذا الشأن.

<u>نسخة أخرى من الرسالة التي كتبها لحاكم البنيون Penon</u>

من العبد لله، والذي يحكم كل الناس، ابن الملك الشريف الحسني أيده الله وأعانه، متضرعا إلى الله لكي ينصره على أعدائه.

إلى القائد وحاكم بادس، منح الله له الصحة والدرجات السامية.

أحيطكم علما بأنني بخير وفي أتم الصحة بمدينة بادس، وأبعث بهذه الرسالة مع خادمي العزيز، القائد والحاكم الذي يسمى أحمد، لكي يناقش مع ملك اسبانيا قضايا تخصنا، وإن كل ما يناقشه المبعوث مع هذا الملك سيكون إيجابيا، وهكذا سيحمل جوابا من صاحب الجلالة الذي سيبدي وجهة نظره في الموضوع.

ولهذا لا أرغب قصد أي أمير سوى صاحب الجلالة، وإني سآخذ برأيه بدون نقاش.

الرسالة الثالثة عشر[1]:

من فليب الثاني إلى حكام البرتغال[2]

إلى المكرمين بالأب المسيحي العظيم، أعزاءنا رؤساء الأساقفة والفرسان في لشبونة، الذين أسندت إليهم مقاليد الحكومة البرتغالية، بعد غياب سمو الملك ابن أختي.

نسخة من الرسالة التي كتبها جلالته إلى حكام المملكة البرتغالية بمناسبة موت الملك الدون سباستيان.

الدون فليب الثاني ملك قشتالة وليون وأراكون وصقلية وجروساليم Jérusalem بفضل الله.

المكرمين بالأب المسيحي العظيم أعزاءنا، لقد أدركت الحادثة الأليمة التي تعرض لها سمو الملك ابن أختي الدون سباستيان خلال حملته، لقد تلقيت هذا الخبر بكل أسى، ولقد بعثت أحد نبلائي وهو الدون كريستفال دي مورا، ليقدم إليكم التعزية نيابة عني، ويخبركم بالإجراءات التي يمكن اتخاذها لحماية سبتة وطنجة وأصيلا.

أرجوكم أن تثقوا بي وبما سأقوم به لخدمة مصلحة ابن أختي وشؤون إمارته، لأنه في مرتبة ابني، ومن أجله سأبذل كل جهدي وذلك بواسطة ما سيقوم به مبعوثي إليكم، الدون كريستفال دي مور.

من مدريد 18 غشت من عام 1578.

أنا الملك

II- التعليـق

مقدمـة :

إن تزامن عدة قوى في المغرب منذ بداية القرن 16م إلى أواخره، أي إلى غاية وقوع معركة وادي المخازن، جعل من العلاقات المغربية الخارجية على عهد الدولة السعدية موضوعا معقدا وشائكا. والرسائل التي قدمناها معربة من اللغة الإسبانية ستمكننا بدون شك من مقاربة بعض جوانب هذه العلاقات، من خلال العناوين التالية :

العلاقات السعدية الإسبانية:

---

[1] - Chantal de la Vérone , Op Cit, P . 464-465, (N° 3).

[2] - هؤلاء الحكام تم تعيينهم من طرف الملك سباستيان قبل رحلته إلى المغرب وهم: الدون جورج دي ألميدا D. Jorge de Almeda، رئيس الأساقفة في لشبونة، بدرو ألكاسوفا Pedro Alcaçuva وزير المالية، وفرانسيسكو دي سا Francisco de sa، الدون جوا ماسكارينياس Don jooa Mascareheas، والدون ماكاييل دي مورا D. Meguel de Moura كاتب المملكة، انظر: Chantal de la veronne, op, cit, p:446, (N°1)

تناولت كل الرسائل المترجمة العلاقات السعدية الإسبانية منذ عهد محمد الشيخ إلى معركة وادي المخازن، ويمكن تقسيمها من حيث الزمن إلى شطرين، فالرسائل الثمانية الأولى تشير إلى العلاقات السعدية الإسبانية على عهد محمد الشيخ السعدي وإلى غاية فبراير 1552م، حيث كانت العلاقة تتميز بنوع من التوتر والنزاع، وذلك راجع إلى عدة أسباب، أهمها - وكما ورد في عدد من هذه الرسائل- يتمثل في محاولة إسبانيا تقديم المساعدات المادية والعسكرية للمناوئين للسلطة السعدية. فالرسالة الأولى مثلا توضح لنا أن الإسبان كانوا يودون إغاثة ملك فاس أحمد الوطاسي، للتصدي لمحمد الشيخ، لأنهم كانوا واعين بخطره المتزايد على مصالحهم بالمنطقة، حيث يقول قائد مليلية في إحدى رسائله إلى فليب الثاني "... **ويبدو لي أنه في مصلحة صاحب الجلالة .... إغاثة ملك فاس (أحمد الوطاسي) مثلما حدث في مملكة غرناطة، وسيكون ذلك فرصة نستفيد منها ... لأن الشريف إذا تمكن من تلك الأرض وصار سيدها، سيصبح من العسير طرده منها، ويمكن أن يلحق أضرارا جسيمة بها.** "[1].

كما تشير الرسالة الثانية إلى أن الإسبان حاولوا إيواء أبي حسون سنة 1549 عندما التجأ إليهم لطلب المساعدات لاسترجاع حكمه " **بعد وصولي إلى مدينة مليلية، أحيطكم علما بوصولي وكيف تمّ استقبالي من طرف هؤلاء القادة بالترحاب الكبير** "، ثم بعد ذلك وفي سنة 1551 نرى قائد مليلية يكتب إلى أبي حسون قائلا: "**منذ عدة أيام ونحن نتمنى رؤية سموكم في هذه البلاد، لأن هناك حاليا فرص كثيرة للوصول إلى ما كنتم تهدفون إليه، وهو الإطاحة بالشريف.... وهذا ما نتمناه دائما.... وأظن أن جلالتكم سيقوم بذلك، ويجب ألا تكون لكم سوى هذه الغاية**".[2] كما قامت إسبانيا أيضا بتدعيم ملك دبدو مولاي عمر وتزويده بالمؤن " **وسموكم قد أنعم علينا عندما أمرنا بإغاثة هذا الملك (مولاي عمر) والمغاربة والعمال المنهوكين، ... ومن الآن فصاعدا سأعتمد على قمح الدوق لتزويد الملك والمغاربة التابعين له**".[3]

وإذا تمعنا جيدا في هذه المساعدات التي كانت إسبانيا تحاول تقديمها للوطاسيين وللمناوئين للسلطة السعدية بصفة عامة، سنجد أنها كانت تهدف من ورائها إلى تقويض أركان هذه الدولة الناشئة، التي كانت تشكل خطرا على مصالحها بالمنطقة، وخاصة إذا علمنا أن محمد الشيخ مافتئ ينادي بالجهاد لتحرير الوطن وإنقاذه من الفوضى الداخلية، والعودة بالناس إلى مبادئ الدين الصحيح. وهذا يتنافى مع ما كانت تهدف إليه إسبانيا، إذ كانت تسعى إلى تحقيق مزيد من التوسعات نحو المناطق الداخلية للمغرب، انطلاقا من مليلية التي كانت تحت سيطرتها، وذلك لاتخاذ المغرب كقاعدة لصد الخطر العثماني عن هذه البلاد، وبالتالي عن الحوض الغربي

[1] - انظر الرسالة رقم: 1.
[2] - انظر الرسالة رقم: 4.
[3] - انظر الرسالة رقم: 3.

من البحر الأبيض المتوسط، حتى لا تقع الطريق التجارية الجديدة تحت رحمة الأتراك، وحتى لا يقع تهديد تجاري جديد لشبه جزيرة إيبيريا وغرب أوربا المسيحية[1].
إذن فهذا التضارب في المصالح بين الطرفين جعل العلاقات بينهما تتسم بهذا الطابع التشنجي الذي لامسناه.

أما الرسائل الثلاثة التالية (9- 10-12)، فتشير إلى هذه العلاقات في عهد عبد الملك المعتصم، فهذا الأخير الذي عرف باطلاعه على الحضارات الأروبية حاول نهج سياسة توازن تضمن احترام جميع الدول بما في ذلك إسبانيا، ولذلك نجده قد بعث إلى الملك فليب الثاني عدة رسائل لمحاولة نسج خيوط الصداقة والسلام معه، فإذا كانت محاولات خطب ودّ فليب الثاني في البداية أي في سنة 1576 لم تلق آذانا صاغية لديه، حيث نجده يقول في إحدى رسائله إلى سفيره في البرتغال:" **لقد أخبرني قائدي العام في وهران ... بأن الشريف أفهمه بأنه يرغب في عقد اتفاقية معي حول الهدنة والتحالف ... وتبين لي أنه من المناسب رفض اقتراحه**"[2]، فإن فيليب الثاني تراجع عن رأيه، بعد إلحاح مولاي عبد الملك وبعثه بعدد من الرسائل حول نفس الموضوع، وكتب له في ماي 1577 رسالة جوابية يقول فيها " **بالنسبة لرسائلكم المؤرخة في العاشر من يناير والخامس من فبراير ... تفهمنا الإرادة الحسنة في إثبات أسس السلام والصداقة بيننا، وقد أسعدنا هذا كثيرا، وقد كلفنا القائد السالف الذكر[3] بذلك... وسنوصي بالحرص عليها على مرّ الزمان لإثباتها**"[4]. وقد بدأ الحديث بين فليب الثاني وعبد الملك المعتصم للدخول في مشروع معاهدة إسبانية مغربية لإقرار السلم، لكنها لم تسفر على نتيجة، وذلك نظرا للاتصالات التي أجراها ملك البرتغال الدون سباستيان مع خاله فليب الثاني أثناء استعداده للقيام بحملته على المغرب، والتي أدت إلى حدوث معركة وادي المخازن وانتهت بمقتل سباستيان ثم ضمّ البرتغال تحت لواء إسبانيا، وتشير إلى ذلك الرسالة رقم 13 حيث نجد فليب الثاني يقول فيها " **لقد أدركت الحادثة الأليمة التي تعرض لها سمو الملك ابن أختي الدون سباستيان خلال حملته، لقد تلقيت هذا الخبر بأسى، ولقد بعثت أحد نبلائي ليخبركم بالإجراءات التي يمكن اتخاذها لحماية سبتة وطنجة وأصيلا**"[5]، الشيء الذي أعاد العلاقات بين الطرفين من جديد إلى نقطة الصفر، وخاصة بعد أن عملت إسبانيا على ضم المستعمرات البرتغالية في المغرب.

الوسائل التي اعتمدتها إسبانيا للتدخل في شؤون المغرب :

---

1 - عبد الكريم كريم، تاريخ الدولة السعدية، ص.75.
2 - الرسالة رقم: 9.
3 - يقصد بذلك القائد كابريتا.
4 - انظر الرسالة رقم: 10.
5 - انظر الرسالة رقم: 13.

نظرا للموقع الاستراتيجي الهام للمغرب، فقد تهافت الأجانب للاستيلاء عليه خاصة منهم الإسبان والبرتغال، فهؤلاء قاموا بالاستيلاء على سواحله الشمالية والغربية بدءا من مدينة سبتة سنة 1415م، وذلك لحماية مصالحهم التجارية، وكذلك لاتخاذها قواعد حصينة للتصدي للخطر التركي الذي يهددهم. ومن أجل الحفاظ على هذه المراكز الإستراتيجية بالمغرب، اعتمدوا على عدة وسائل منها: إقامة التحصينات، ثم تدعيم المنشقين عن السلطة، ثمّ التجسس.

أولا: إقامة التحصينات:

تمت الإشارة إلى هذا الموضوع في مجموعة من الرسائل (3-6-7-13).

بالنسبة لإسبانيا فقد قامت بتحصين مدينة مليلية وتزويدها بالمؤن الضرورية والذخائر والجيش، كما تشير الرسائل (3-6-8) إلا أن حكام مليلية كانوا واعين بخطر السعديين، ولذلك كانوا يحثون دائما قادة إسبانيا على الاهتمام بهذه المدينة، وما كان لهؤلاء إلا أن يلبوا رغباتهم حيث نجد قائد مليلية يثير انتباه فليب الثاني في إحدى رسائله بقوله " **إن العناية بالأشغال الخاصة بتحصين هذه المدينة، ترجع بالأساس إلى العناية بمصلحة سموكم**"[1]، ثم في رسالة أخرى نجد: "**ومن الآن فصاعداً ستكون هذه المدينة في حاجة ضرورية إلى المؤن**"[2]

وسبب هذا الاهتمام بمليلية هو أن هذه المدينة كانت بمثابة عين لإسبانيا في المغرب، فكل ما كان يحدث في المغرب كان يصل إلى إسبانيا عن طريقها، ويشير إلى هذه المسألة عدد من الرسائل المترجمة (3-5-6-7-)، بل تشير إلى أن مليلية كانت عبارة عن إسبانيا مصغرة، فمثلا من أراد اللجوء إلى إسبانيا لطلب المساعدة، يقصد أولا حكام مليلية الذين كانوا يلعبون دور الوسيط بين اللاجئين إليهم وحكام إسبانيا، فأبو حسون مثلا لما أراد اللجوء إلى إسبانيا، ذهب في البداية إلى مليلية، وقد أشارت إلى ذلك الرسالة رقم 2 " .. **وإني لجدّ متوتر لطول المدة التي مكثتها في مليلية ...أتوسل إلى سيادتكم لإرسال كتاب عاجل إلى العاصمة، لأتمكن من الذهاب إلى إسبانيا للالتقاء بأصحاب السمو**".

وبعد معركة وادي المخازن قام الإسبان بضم المستعمرات البرتغالية في المغرب، وكان من جملة ذلك مدن طنجة وسبتة وأصيلا، وعملوا على تحصينها، كما يتضح ذلك من رسالة فليب الثاني حيث يقول:" **ولقد بعثت أحد نبلائي وهو الدون كريستفال دي مورا، ليقدم إليكم التعزية نيابة عني، ويخبركم بالإجراءات التي يمكن اتخاذها لحماية سبتة وطنجة وأصيلا.**"[3]

---

[1] - انظر الرسالة رقم: 6.
[2] - انظر الرسالة رقم: 3.
[3] - انظر الرسالة رقم: 13.

ثانيا : التجسس:

التجسس هو وسيلة اعتمدت عليها السياسة الدولية منذ القدم وإلى الآن، وذلك قصد الاطلاع على أحوال الدول الأخرى، إما لحماية نفسها أو لمعرفة مواطن الضعف في سياسات غيرها، وقد أثير هذا الموضوع في عدد من الرسائل المترجمة (3-5-6-8-)، وما تجب الإشارة إليه هو أن الإسبان قد التجأوا إلى هذه الوسيلة للاطلاع على تحركات الدولة السعدية، وذلك لمعرفة نقط ضعفها وقوتها، وكل ذلك من أجل مصالحهم في المغرب، وبسط نفوذهم عليه متى سمحت لهم الظروف بذلك. وتشير الرسائل (3-5-6-8-9-) إلى أن هناك أعدادا من الجواسيس كانوا يقومون بنقل الأخبار إلى إسبانيا كما تشير إلى ذلك الرسالة رقم 8 " **وصل إلى هنا جاسوس، وأخبرني بأن الشريف قد حشد جيشا للهجوم على هذه المنطقة، وهو ما يتناسب مع ما قاله لي جاسوس آخر"** وفي موضع آخر يقول " **وأخبرني هذا الجاسوس أيضا بأن ملك دبدو[1] يودّ المجيء إلى هنا"** كما نشير إلى أن أغلب عمليات التجسس كان يقوم بها التجار النصارى الذين كانوا يجوبون المغرب كما تشير إلى ذلك الرسالة رقم 11 " **قال لي هذا اليوم التاجر الكورسي أندري كَاسبارو، الذي سبق لجلالتكم أن علم منه أخبارا"**، كما نشير إلى أن الإسبان كانوا يعتمدون كذلك في الحصول على أخبار المغرب على عمالهم في المدن المستعمرة خاصة منها مليلية، من ذلك الرسالة رقم 7 حيث نجد قائد مليلية يقول في رسالته لفليب الثاني " **لا نتوفر حاليا على أخبار تتعلق بالشريف ولا بملك دبدو تستحق الذكر سوى ...**"[2] ثم نجد في رسالة أخرى يقول: "**منذ مدة طويلة لم نسمع أخبارا جديدة عن الشريف ولا عن جيشه باستثناء ما أخبرت به سموكم ...**"[3]

ثالثا : تدعيم المناوئين للسلطة الحاكمة

وهي وسيلة ثالثة اعتمدها الأجانب وخاصة منهم الإسبان لتحقيق مساعيهم في المغرب، وتشير الرسائل (1-2-3-4-5-7-8-12) إلى هذا الموضوع.

لقد كان الأجانب واعين بخطر الدولة السعدية الناشئة على مصالحهم التجارية والاستراتيجية بالمنطقة، ولهذا حاولوا التصدي لهذا الخطر الذي يهددهم بجميع

ونفس الشيء بالنسبة للبرتغاليين الذين هم بدورهم كانوا يولون اهتماما بالغا للمدن المغربية الساحلية التي كانت تحت سيطرتهم كسبتة ومزكان حيث قاموا بتحصينها وذلك للحفاظ على المصالح التجارية والاستراتيجية وكذلك لاتخاذها قواعد للتصدي لخطر الدولة السعدية والخطر التركي.

[1] ـ يقصد به مولاي عمر.

[2] ـ انظر الرسالة رقم: 7.

[3] ـ الرسالة رقم: 3.

الوسائل، مشروعة كانت أو غير مشروعة، ومن ذلك تدعيمهم للمناوئين لها واستغلال نزاعها معهم، وفي هذا الإطار استغلالهم صراعها مع السلطة الوطاسية، إذ أن السعديين لم يكونوا قد قضوا نهائيا على هذه الدولة، ففي البداية حاولت إسبانيا تقديم المساعدات لأحمد الوطاسي ملك فاس، كما تشير إلى ذلك الرسالة الأولى" **أحيطكم علما لكي تبعثوا للتشاور إذا كان من الأحسن إغاثة ملك فاس** (أحمد الوطاسي)،... **وسيكون ذلك فرصة نستفيد منها...**".[1]

ولكن لما تمكن السعديون من القضاء عليه، حاول الأجانب التعاون مع أمير وطاسي آخر ألا وهو أبو حسون ضد السعديين خاصة منهم محمد الشيخ، حيث حاولوا تدعيمه ماديا وعسكريا، وتشير الرسالة رقم 7 إلى هذا التدعيم "... **لكي يدفعوا لي النقود التي صرفتها على أبناء ملك بادس**" أي أبي حسون الوطاسي، وكذلك في رسالة أخرى نجد أبا حسون يقول لقائد مليلية " **أقبل يدي عظمتكم للمعروف الذي أسديتموه لي**" إلا أن الإسبان قد فشلوا في ذلك إذ تمكن محمد الشيخ من القضاء نهائيا على الوطاسيين.

لقد حاول الأجانب وخاصة الإسبان منهم خلال القرن السادس عشر الهجري أن يطبقوا على المغرب سياسة فرق تسُد، فاتخذوا من المناوئين للسلطة القائمة وسيلة لنشر الفوضى والنزاع داخل المغرب حتى ينشغل السعديون عنهم، فيتمكنون بالتالي من تحقيق مساعيهم داخل المغرب، لكن مساعيهم مع ذلك باءت كلها بالفشل.

---

[1] - رسالة من قائد مليلية إلى فليب الثاني مؤرخة بسنة 1548.